الوديان الأربعة

هو العزيز المحبوب

أي ضياء الحق حسام الدين الجليل
الذي لم يلد الفلك ولا الارضين شبهك من ملك
لا ادري لماذا قطعت حبل المودة بالمرة ونقضت عهد المودة المحكم
هل قصرت- لا قدر الله- إرادتي أم بدا لك فتور في خلوص نيتي فأغمضت عني طرفك وجعلتني دبر خاطرك؟
فما بدا لك من مخالفتي فقطعت عنى ملاطفتك؟ إلا إننا ضعفاء وأنت ذو احتشام؟ أم أفزعك عن ساحة القتال سهم واحد(أما سمعت الاستقامة شرط السبيل والى السرادق هي الدليل؟)
(إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة) ويقول أيضا(فأستقم كما أمرت)
لهذا كان هذا السلوك لزاما على المستقرين على بساط الوصول
إنما أنا أقول لك اشراط البلاغ سواء علي أسمعت نصحي أم أدركك الملال
ولو أنني لم أتلق لكتابي ردا وان كان التذكير لدى العقلاء خطأ لا موقع له إلا أن محبة البديع قد قضت على ذكر القديم ونسخت قواعده:
فلا تتل قصة ليلى وغصة المجنون نسخ عشقك ذكر الأوائل
كان يذكر اسمك وتسامح به العاشقون فرقص طربا كلا السامع والقائل
في حكمة الإلهية وتبدية الربانية
لي أيها الصم أيام ثلاثة في أول كل شهر ارتد فيها مجنونا حتما
حقا! فأن اليوم أول الأيام الثلاثة انه يوم الظفر لا يوم القهر
بلغني انك طلبت تبريز وتقليس للتعليم والتنقيب أو انك أشرفت لتعرج في معا رج العلا
إي سيدي! إن المصعدين في السماوات طوائف أربع فحسب
وسأحدثك من أمرها ذكرا قصيرا حتى تعلم بالبرهان علامة كل طائفة ومرتبتها في تلك الخدمة

الوادي الأول

فإذا كان السالكون من طلاب كعبة المقصود تعلقت هذه المرتبة بالنفس ولكن نفس الله القائمة فيه بالسنن هي المراد
والنفس في هذا المقام محبوبة لا مردودة مقبولة غير مقهورة
مع أن أول ألرتبه موضع للجدال إلا أن أخرها الجلوس على عرش الجلال كما يتفضل ويقول:
يا خليل العصر و إبراهيم الحكمة اقتل هذه الطيور الأربعة المضللة
حتى يتجلى سر الحياة بعد الممات
وهذا مقام النفس المرضية إذ تفضل ويقول:
(فأدخلي في عبادي وادخلي جنتي)
ولهذا المقام إشارات كثيرة ودلالات عديدة لذلك يتفضل ويقول:

(سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق لا الــه إلا هو)
إذا فمن الواجب أن نقرأ كتاب النفس لا رسائل النحو إذ يتفضل ويقول:
(اقرأ كتابك كفى اليوم عليك حسيبا)
روى أن عارفا بالله صحب عالما بالنحو فأتفق كلاهمـا في الأسـرار حـتى بلغا شاطئ بحر العظمة . فالعارف توسل وخاض في الماء دون تأمل
على حين بهت عالم النحو وذهبت نفسه سرابا كالنقش على الماء
فصاح به العارف (لماذا ثنت عنان عزمك)
فقال العالم(يا أخي مـاذا افعـل؟ أمـا وقـدمي لا تتقـدم فـان النكـوص بي أولى)
فأجابه العارف(اطرح ما أخذته عن سـيبوبه وقولويـه وما طلبتـه لـدى ابن الحاجب وابن مالك واعبر الماء
هذا مقام ينبغي فيه المحو لا النحو فإذا محيت سـرت على المـاء بلا خطر
ويقول تعالى أيضا(ولا تكونوا كالذين نسوا اللـه فأنسـاهم أنفسـهم أولئـك هم الفاسقون)

الوادي الثاني

وإذا كان السالكون من سـاكني حجـرة المحمـود فـيرجع هـذا المقـام إلى العقل الذي يسمونه بالنبي ويعدونه الركن الأعظم
ولكن المقصود هو العقل الكلي الرباني الذي تكون في هذه الرتبة الوجود والأكوان بسلطانه من دون كل عقل ناقص أجوف
كما يقول الحكيم سنائي ماذا يسـتطيع العقـل الجـزئي أن يحيـط بـالقران وكيف يتسنى للعنكبوت أن يصيد العنقاء فان شئت أن لا يرمي بـك العقـل فجأة في الشرك اسمع وادخل في مكتب سورة الرحمن وفي هذا المقـام جيشا عظيم وتلاطم شديد يعلو بالسالك تارة وينخفض به أخرى
كذلك يتفضل ويقول
مرة تجذبني إلى عرش العماء ومرة تهلكني بنار الإغماء
كذلك يتضح في هذا المقام السـر الكـامن في آيـة الكهـف المباركـة حيث يقول
(وتـــرى الشـــمس إذا طلعت تـــزاور عن كهفهم ذات اليمين وإذا غـــربت تقرضهم ذات الشمال وهم في فجوة منه ذلك من آيات الله من يهـد اللـه فهو المهتد ومن يضلل فلن يجد له وليا مرشدا)
فلو اطلع احد على إشارات هذه الآية وحدها لكفته
أولئك هم الذين يقول الله فيهم (رجـال لا تلهيهم تجـارة ولا بيـع عن ذكـر الله)
فهذا المقام هو الميزان وأركان الامتحان ولا تضر الاستفادة أيضا في هــذه الرتبة وفي تعليم السالكين هذه اللجة يتفضل ويقول
(اتقـوا اللـه ويعلمكم اللـه) ثم إن (العلم نـور يقذفـه اللـه في قلب من يشاء)

إذا وجب أن يعد المكان ويكـون لائقـا بـنزول العنايـة حـتى يسـقي سـاقي الكفايــة خمــر المكرمــة من زجاجــة الرحمــة إلا أن بــذلك(فليتنــافس المتنافسون) وحينئذ أقول(إنا لله وإنا إليه راجعون)

الوادي الثالث

وإذا كان العاشقون من عاكفي بيت المجـذوب اسـتحال لأحـد- غـير طلعـة العشق – أن يستولى على هذا السرير السلطاني وما أطيـق لهـذا المقـام من شرح وما اعلم له من صفة

إنما العشق منقطع عن كلا العالمين وفيه من الجنون اثنـان وسـبعون لونا

فيدق(يضرب) مطرب العشق هذا وقت السماع ما يلي:

(آزر العبودية واتعب الحق)

وهذه الرتبة تتطلب صرف المحبة وتسـتلزم زلال المـودة وفي صـفة أهلها يقول الله:

(الذين لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون)

ولن يكفي هـذا المقـام سـلطنة العقـل ولا حكومـة النفس كمثـل نـبي من أنبياء الله دعا الله:

رب كيف الوصول إليك؟

قال: الق بنفسك ثم تعالى (أولئك قوم يرون موضع النعـال بصـدر الجلال ويعدون إيوان الجمال وميدان الجدال في سبيل المحبوب شيئا واحدا)

والعاكفون على هذا البيت لا يعملون أمرا بل هم يسيرون مركبهم

فلا يرون شيئا إلا نفس المحبوب

ويخالون كل الألفاظ مهملة وعندهم جميع المهملات كالمستعملات

ولا يميزون ناصية من قدم ولا يجدون بين اليد والرجل اختلافا

يحسبون السراب عين الماء ويحسبون الذهاب سر الإياب

كذلك قالوا:

انعكس في الخانقان وصف من حسن طلعتك فالتمس الصوفي طريـق ألحان

دمر عشقك حصن الصبر تماما وغلق جورك باب الأمل بالكلية

فيبطل التعليم في هذا المقام ويتعطل التعلم لا محالة

معلم العاشقين حسن الصديق دفتر تعليمهم الأولى وجهه

درسهم البلبلة والحنين والقلق لا الزيادات ولا باب السلسلة

سلسلة هؤلاء القوم الطرة الفياحة بالمسك

المسألة بعيده أما بعد المحبوب

في المناجاة لله تبارك وتعالى

الهي يا من لطفك قاضي الحاجات ولا يقضي معك أمل إي احد

ذرة العلم التي في روحي قدسها عن الهوى والتعلق بالتراب

قطرة العرفان التي وهبتها من قديم صلها ببحارك

إذا أقول(لا حول ولا قوة إلا بالله المهيمن القيوم)

الوادي الرابع

أما إذا كان العارفون من الواصلين إلى طلعة المحبوب فمقـامهم هـذا هـو عرش الفؤاد وسر الرشاد ومكمن رمز(يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد) رمز شريف وسر لطيف لو قام على شرحه كـل من في السـماوات والارضـين إلى يوم ينفخ في الصور لما استطاعوا أن يبينوا منه حرفـا ولا أن يحصـوه ذلـك بـان هـذا مقـام القـدر والسـر المقـدر ولهـذا تسـالوا بهـذا الأمـر فتفضل(بإجابتهم) قائلا:

(بحر زخار لا تلجه أبدا)

ثم أعادوا المسألة فأجاب (ليل دامس لا تسلكه)

ولا بحالة لمن أدرك هذه الرتبـة أن يسـتر أمـره فانـه لـو اظهـر من أمـره رشحا أو ابرز من شأنه أمرا لارتفعت رأسه على المشنقة حتما

ومع ذلك- فقسما بالله! لئن رأينا لها طالبا لفصلناها ذلك لأنه تفضل بقوله (الحب شرف لم يكن في قلب الخائف الراهب)

وان السالك إلى الله في منهج البيضاء والركن الحمراء لن يصل إلى مقام وطنه إلا بكف الصفر عما في أيدي الناس ومن لم يخـف اللـه أخافـه اللـه من كل شئ ومن خاف الله يخاف منه كل شئ

تكلم بالفارسية وان كانت العربية أحلى فللعشق تسع مئة ألف لسان

وما املح هذا البيت في هذا المقام:

لئن وهب در العطاء فالقلوب أصـدافها   ولئن أتت سـهام البلاء فأهـدافها الأرواح

ولو لم يكن ثمة مخالفة لحكم الكتاب لقاسمت قاتلي مـالي ووهبتـه الإرث وحفظت له منته ومسحت على عيني بيده ولكن ماذا افعل وقد قضى الله بالا يكون لي مال وسلطان

حينئذ أجد رائحة المسك من قميص الهاء عن يوسـف البهـاء كـأني وجـدتها قريبا إن انتم تجدونها بعيدا

استنشق رائحة الروح من صوب روحي   وتصل رائحة نصيري المحبوب

وفاء بحق السنين الخوالي   اعـد ذكـر حـال من تلـك الأحـوال السعيدة

لتبسم الأرض والسماء طربا   ويريد العقل والـروح والبصـر مائـه صحف

وهذا مقام الصحو البحت والمحـو البـات فمـا المحبـة من سـبيل في هـذه الرتبـة ومـا للمـودة من مقـام كمـا يتفضـل ويقـول: (المحبـة حجـاب بين المحب والمحبوب)

فالمحبة في هذا المقام قمص وحجاب وكـل ما سـواه غطـاء لـذلك يقـول سنائي الحكيم: (نحو هذا الآسر للقلوب لا يسـرع احـد بقلب مفعم بالآمـال مع مثل هذا الوجه الوردي لا يهجع لابس لقميص)

ذلك بان هذا عالم الأمر المنزه عن إشارات الخلق

فرجال هذا الـبيت يبـدون الألوهيـة والربوبيـة على بسـاط النشـاط بكمـال الفرح والانبساط ويحكمون وهم على نمارق العدل فيعطـون كـل ذي حـق حسب قدره واستعداده وشاربوا هـذا الكـأس سـاكنون تحت قبـاب العـزة

فوق عرش القـدم جالسـون على كرسـي العظمـة في خيـام الرفعـة وهم الذين
(لا يــرون فيهــا شــمس ولا زمهريــرا) في هــذه المرتبــة ما تــرى بين السماوات العليا والارضين من تعارض ولا تفاوت لأن ذلك مقام الألطاف لا بيان الأضداد ولو أنهما يتحليان كل حين في شأن جديـد إلا انـه ليس هنـاك إلا شأن واحد
لذلك يتفضل ويقول في هذا المقام: (لا يشغله شأن عن شأن)
وفي مقام أخر (كل يوم هو في شأن)
ذلك من الطعام الذي لم يتسـنه طعمـه ولن يتغـير لونـه ولو تنـاولت منـه قدرا يسيرا فما اخالك إلا قارئا هذه الآيات الكريمة:
(إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفا مسلما وما أنا من المشركين)
(وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السـماوات والأرض ليكـون من الموقـنين إذا فأدخل يدك في جيبك ثم اخرجها بالقوة لتشهدها نورا للعالمين)
ما ألطف هذا الماء العذب في يد الساقي المحبوب
وما ارق هذا الخمر الطهور من يد طلعة المخمور
وما أشهى طعام السرور من كئوس الكافور
هنيئا لمن شرب منها وعرف لذتها وبلغ إلى مقام معرفتها
ليس في استطاعتي أن أقول أكثر من هذا فما للبحـر أن يحتـوي الجـدول ذلك بـان سـر هـذا البيـان مكنـون في كنـوز العصـمة مخـزون في خـزائن القدرة منزها عن جواهر البيان مقدسة عن لطائف التبيان
والتحـير في هـذا المقـام محبـوب والفقـر البحت مرغـوب حيث يتفضـل ويقول(الفقر فخري)
وقد ذكر غير هذا
لله تحت قباب الغر طائفة أخفاهم في رداء الفقر إجلال
أولئك الذين بعينه يبصرون وبأذنه يسمعون مصداقا للحديث المشهور
تعدت في هذه الرتبة الأخبار والآيات في الآفاق والأنفس
ولكننا نكتفي بحديثين هما للمطالعين نور وللمشتاقين سرور
أما الأول فقوله:
(عبـدي اطعـني حـتى أجعلـك مثلي أنـا أقـول كن فيكـون وأنت تقـول كن فيكون)
وأما الثاني فقوله
يا ابن ادم لا تأنس بأحد ما وجدتني ومتى أردتني وجدتني بارا قريبا)
كل ما ورد هو من الإشارات البديعة والدلالات المنيعة إنمـا مرجعـه حـرف فرد ونقطة واحدة
وذلك من سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا ولا تحويلا
هذا وقد شرعت منذ مدة في تحرير هذا الكتاب باسم حضرتك
ولما أبطأ بي ردك مضى صدر الكتاب شكاية وعتابا
غير أن كتابك الأخير ذهب بالشكاية ودفعني أن أرسل إليك هذه الرقعة
فما لهذا العبد حاجه أن يبدي حبه لحضرتك وكفى بالله شهيدا
واني اكتفي بان أرسل إلى محضر جناب الشيخ محمـد سـلمه اللـه تعـالى بيتين من الشعر هما:

إني أجد محضرك خيرا من عرش العلا   واني أتوسم وجهك فهو خير من رياض الجنان
إذا عرضت أمانة العشق على القلم آبى أن يحملها فصار منصعقا فلما أفاق قال سبحانك إني تبت إليك وأنا أول المستغفرين والحمد لله رب العالمين
شرح هذا الهجران واحتراق الكبد   دعه الآن لحين آخر
من الخير لأسرار المحبين   أن تقال في حديث آخر
فلا تلتمس فتنة أو قلقا أو سفك دم   ولا تقل عن شمس تبريز أكثر من هذا
والسلام عليكم وعلى من طاف حولكم وفاز بلقائكم
هذا وقد التهم الذباب كل ما سطره هذا العبد لحلاوة المداد
على أن لسعدي في هذا المعرض بيانا نورده:
أنا لا أريد أن اكتب شيئا بعد فان الذباب يذهب بحلمي من شدة حلاوة القول(أو الكلام)
أما وقد كلت يدي من التحرير فإنها تلتمس أن يكون في هذا الكفاية
ولهذا أقول (سبحان ربي ورب العزة عما يصفون)